

مجموعات في الفلسفة :

٢ - مبدأ المعرفة :

يتحكم هذا المبدأ في تصوراتنا وأحكامنا . وقوة التصورات هي « العقل » الذي يختص به الإنسان ، بينما « الذهن » مشترك بين الإنسان والحيوان . والتصورات أو المجردات تتوقف على المدركات أو العيانات ، والتصوير قد يحيل على تصور آخر ، وهذا على آخر مثله ، ولكن سلسلة الأفكار المجردة لا بد من أن تقف عند عيان ، ويكون هذا هو السبب الكافي للتصور الذي يتوقف عليه مباشرة ؛ كما أن هذا التصور هو الأساس الكافي للتصور الذي يتوقف عليه ، أى الذى هو أكثر منه تجريباً . وهناك أربعة قوانين منطقية عليا ، هي قانون الذاتية ، وقانون التناقض ، وقانون الثالث المرفوع ، وقانون السبب الكافي للمعرفة .

٣ - مبدأ الوجود :

أو مبدأ المكان والزمان . ونحن لا نستطيع أن نتصور العالم الواقعى موجوداً إلا فى الزمان والمكان . ولكننا نستطيع ، من جهة أخرى ، لا أن نتصورهما مستقايين عن التجربة تصوراً مجرداً لحسب ، بل وأن ندركهما بالعيان المباثر . ومن أجل ذلك يعتبرهما شوبنهاور صنفاً مخصوصاً من أصناف الموضوعات . ومبدأ الوجود فى الزمان هو « التوالى » ، ومبدأ الوجود فى المكان هو « الرضع » . كل لحظة من الزمان تتميز بالاحظة السابقة ، وتتميز بالاحظة اللاحقة . ومواضع المكان يميز بعضها بعضاً بالتبادل . والإضافات (أى العلاقات) المكانية هي موضوع علم الهندسة ، والإضافات الزمانية موضوع علم الحساب . وكل هذه الإضافات تدرك ، أول ما تدرك ، بالعيان الخالص ، لا بالتصور والبرهان .

مبدأ الفعل :

أو مبدأ البواعث أو الباعثية . وقد كنا - فى كلامنا على مبدأ الطية - عددنا الباعث فى أنواع العطل الثلاثة . ولكننا كنا عندئذ ننظر إلى العلية من الخارج . فإذا تأملنا الآن فى أحوالنا الباطنة ، وجدنا أن أفعالنا الإرادية أو مشيئتنا تتميز

نظرية المعرفة عند شوبنهاور

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

[تصد ما نشر فى العدد السابع]

١ - مبدأ الضرورة :

أو مبدأ التغير ، أو قانون العلة والمعلول . ومفاده أن كل شئ ، فى العالم الواقعى التغير فهو حلقة فى سلسلة العال والمعلولات ، وخاضع إذاً للجزئية المطلقة . وسلسلة العلل أزلية أبدية ، بمعنى أنها تمتد إلى الماضى اللامتناهى ، وإلى المستقبل اللامتناهى . والعلة تسبب المعلول بالضرورة ، فلا مجال لتبادلها الأثر فى وقت واحد . وهناك ثلاثة أنواع من العال ؛ وهى « العلة » بمناها الضيق ، وتسود التغيرات الميكانيكية واللاعضوية ، و « الحافز » أو المهيج الذى يتحكم فى الحياة النباتية عند النباتات والحيوانات (كالهضم والدورة الدموية عند الحيوان والإنسان مثلاً) ، و « الباعث » ، وهو يسيطر على الأفعال المقودة بالإدراك والشعور عند الحيوان والإنسان .

الناس وأنماطهم ، لم يتبادر شيئاً من ذلك إلا أحماء ..

ولو أراد النقاد أن يمدوا عشرة كتب فى فن القصة لها أثرها فى توجيه هذا الفن ، ولما خطر لها فيما تقاس به رسالة هذا الفن لكان كتاب جوجول « الأتفس الميتة » أحد هذه الكتب المشرة بلا جدال ، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأدب أعظم ملحمة للضعة الآدمية فى أدب العالم كله ، وذلك حسب ما يفهم من معنى الملحمة كعمل فنى ، وليس كما قد يذهب إليه الذهن من معنى المركة . فنا فى القصة مركة ما وإنما تقصد معنى الملحمة كما تسمى ملهامة دانتي المقدسة ، أعنى أنها عمل أدبى شامل يحيط بكل شئ . مما هو منه بسبب ...

التصنيف

(يبيع)

من الزمان إنما توجد لأنها محت اللحظة السابقة ، التي ولدتها ، ثم لا تلبث أن تختفي هي أيضاً ، إذ تمحوها اللحظة اللاحقة . فالماضي والمستقبل خاويان خواء الأحلام ، وما الحاضر إلا الحد المترجح ، غير المقسم ، بين الماضي والمستقبل .

ومثل هذا الخواء نصيبه في السكان ، وفي مضمون المكان والزمان ، أى في كل ما يصدر عن البواعث والعلل ، فلا شيء من ذلك يوجد إلا بالنسبة إلى شيء آخر مثله ، أى نسي زائل^(١) . « وهذا الذهب في لبابه قديم : فهو يظهر عند هرقليطى ، حين يندب سيلان الأشياء الأبدى ؛ وعند أفلاطون ، حين يهبط بالموضوع إلى ما هو صائر أبداً ، وليس بكان قط ؛ وعند اسپينوزا ، في صورة القول بأعراض الجوهر الواحد ، الكائن الباقي . كما أن (كانت) يمرض الظاهرة المحضة بالشيء ذاته . وأخيراً فإن حكمة الفلاسفة الهنود القديمة تصرح قائلة : (إن مايا ، نقاب الوهم ، هو الذى يغشى على أبعاد القانين ، ويربهم عالماً لا يستطيعون أن يقولوا عنه ، لا إنه موجود ولا إنه غير موجود : إنه كالحلم . إنه كضوء الشمس على الرمال ، يحسبه المسافر على البمد ماء ...) — ولكن ما يقصد إليه كل هؤلاء ، وما يتحدثون عنه جميعاً ، ليس شيئاً أكثر من هذا الذى نظرنا فيه : العالم باعتباره فكرة خاضعة لبدا السبب الكافى .

عالم الظواهر إذن حلم باطل . وليس ثمة من فرق حقيق بين ما ندعوه الواقع أو اليقظة ، وبين حلم الرقاد . إذ ما عسى أن يكون معيار التفرقة ؟ إن القول بأن أحلامنا أقل وضوحاً وتميزاً من إدراكنا في حال اليقظة ، لا وجه له ، إذ لم يتفق أن استطاع إنسان من الناس عقد مقارنة عادلة بين الحالين ، لأننا لا نستطيع أن نقارن إلا ذكرى الحلم بالواقع الحاضر . وقد جعل « كانت » ترابط الأفكار أو الموضوعات وفق قانون العملية معياراً للتفرقة بين حياة الواقع وبين الأحلام ؛ ولكن يُردُّ على هذا بأن تفاصيل كل حلم على حدته ، على الأقل ، ترابط تبعاً لبدا السبب الكافى في كل مسوِّره ؛ ولا ينقطع الترابط إلا بين اليقظة والأحلام ، أو بين حلم وحلم . وعلى ذلك نستطيع أن نصوغ معيار « كانت »

(١) كما أن عالم الظواهر برته نسي للذات المارة ، تبعاً لصورته العليا (ازدواج الذات والموضوع) .

بالأسباب التى ندعوها « البواعث » . وقد وصف شوبنهاور قانون الباعثية « بأنه العلة سرئية من الداخل » ، وعن طريقه يتم الانتقال من عالم الظواهر إلى الشيء فى ذاته ، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا .

والبدا الأول من مبادئ السبب الكافى هو المبدأ الفيزيائى ، والمبدأ الثانى هو المبدأ المنطقى ، والثالث هو المبدأ الرياضى ، والرابع هو المبدأ الأخلاقى . وهذا مماثله أن « الضرورة » المطلقة تمُّ عالم الظواهر ؛ فى صورة الضرورة الفيزيائية ، والمنطقية ، والرياضية ، والأخلاقية . والفرد الإنسانى ظاهرة بين الظواهر ، فهو إذن خاضع خضوعاً تاماً للضرورة السببية الجبرية ، ولا حرية له بهذا الاعتبار .

وكل مبدأ من هذه المبادئ لأربعة ، أو بالأحرى كل « شكل » من أشكال هذا المبدأ الواحد ، مبدأ السبب الكافى ، يمر كما قلنا آنفاً عن طبيعة الموضوعات الخاضعة له . فبدا الوجود فى الزمان الخالص هو « التماكب » أو « التوالى » ، وليس الزمان شيئاً سوى هذه الرابطة . ومبدأ الوجود فى المكان الخالص هو « الوضع » ، وليس المكان فى جوهره سوى « الوضع » والعلية هى الرابطة التى تسود موضوعات الإدراك الحسى ، التى تعاضد المكان والزمان ، وتؤايف العالم المرئى ، عالم المادة . فإذا سألنا : ما طبيعة المادة ؟ فالجواب أن « المادة » ليست فى جوهرها سوى العلية . كيان المادة كله هو الفعل ، والفعل هو العلية ، فالادة علة ومعلول ، ولا شيء وراء ذلك . ومثل هذا يقال فى تصوراتنا ومشيتاتنا . وصفوة القول إن كل موضوع من الموضوعات فأنما يوجد وبصرف بمقدار ما يرتبط بغيره من الموضوعات ، وفقاً لبدا السبب الكافى فى صورة من صوره الأربع . وهذه الرابطة تستنفد طبيعة الموضوع باعتباره موضوعاً محسب ، أى فكرة بالإضافة إلى الذات . قلنا إذن أن نقول إن عالم الموضوعات أو الأفكار لا يزيد عن كونه شبكة من العلاقات والروابط والنسب ، والوجود فيه إذن وجود محض نسبي . ومبدأ السبب الكافى ، الذى يظهر لنا العالم مطبوعاً بطابعه (طابع الضرورة والنسبية) واحد متشابه فى كل مسوره ، فإذا اعتبرنا أبسط هذه الصور مثلاً ، وهى الزمانية أو الزمان ، فهمنا الصور الأخرى ، وطبيعة عالم الظواهر . ونحن نجد أن كل لحظة

الذي لا يستطيع يقدم لنا سواء ، هو ما يصل إليه التعليل من الروابط السببية . أما مضمون الظواهر ، وممناه الأخير ، أما الشيء في ذاته ، فإن النظر فيه والإخبار عنه ليس من شأن العلم ، لأنه خارج نطاق السبب الكافي ، الذي يهتدى العلم في تليلاته به . وإنما هو من شأن الفلسفة . العلم يستطيع أن يخبرنا لماذا ، وكيف ، وأين ، ومتى ، حدثت هذه الظاهرة عن تلك ، ويستطيع أن يصوغ قوانين لاطراد الظواهر ، من جذبية وكهياوية وكهربائية ومغناطيسية ، ولكنه لا يستطيع أن يثبتنا « ما » المادة ، وما الكهرباء وما الجذب وما الألفة الكهياوية ، وما سائر « القوى الطبيعية » التي تبقى ، بالنسبة إليه ، « كفيات خفية » أو صفات مستورة ؛ وهكذا يتركنا في جهل مطبق بشأن الطبيعة الباطنة لكل شيء . ولكن حيث ينتهي العلم تبدأ الفلسفة . فإن الوصول إلى هذه الطبيعة الباطنة ، إلى ماهية العالم ، هو الهدف الذي ترمى إليه ، وهي لا تلبث عن طريق التعليل ومبدأ السبب الكافي ، فإن هذا المبدأ لا يمتدُّ إليه كما سبق القول ، وإنما تلبثه بضرب من المعرفة السيانية المباشرة ، ويقول شوبنهاور هنا إن كل إنسان يعرف في الواقع ما هو العالم ، ولكن هذه المعرفة تجريبية ، وجدانية ، غير متميزة ؛ ووظيفة الفلسفة إعادة هذه المعرفة القائمة بلغة تصوُّرية تجريدية دقيقة . إن الفلسفة هي مجموع أحكام عامة ، أساسها الكافي هو العالم نفسه برمته ؛ وهي لذلك تلخيص أو انعكاس للعالم ، في صورة أفكار مجردة ...

عبد الكريم الناصري

(بندان)

ظهر هديتنا :

الطبعة الجديدة المزيّنة من كتاب

في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً

عدا أجرة البريد

على الوجه التالي : إن الحلم « الطويل » - الذي نسميه « الحياة » - تتربط أجزاءه جميعاً وفقاً لمبدأ السبب الكافي ؛ ولكنه لا يرتبط هذا الارتباط بالأحلام « القصيرة » وإن كان كلُّ حلم من هذا النوع الثاني مترابط الأجزاء على الوجه نفسه ؛ ونحن إنما نميز بين الحلم الطويل والحلم القصير لانقطاع الصلة السببية بينهما .

والحق أن أعظم المفكرين والشعراء لم يترددوا في تشبيه الحياة بالحياة بالحلم . فأصحاب « القيداس » و « الپوراناس » مثلاً لا يعلون من تشبيه العالم الواقعي - الذي يسمونه نسيج « مايا » - بالحلم . وكان أفلاطون كثيراً ما يقول : إن الناس يمشون في حلم ، وإن الفيلسوف وحده يحاول إيقاظ نفسه . وشكسبير من الشعراء يقول : لقد جُبلنا من المادة التي تصنع منها الأحلام ؛ وحياتنا القصيرة يحف بها النوم . وقد جعل كلدرون عنوان إحدى مسرحياته : « الحياة حلم » . ولا يكتفي فيلسوفنا الأديب بما يقتبسه من الحكماء والشعراء ، بل يدل هو أيضاً بدلوه ، ويستأذن قارئه في هذا التشبيه من تشبيهاته الرائمة : إن الحياة والأحلام صفحات من كتاب واحد . والقراءة المنظمة لهذا الكتاب هي الحياة الواقعية ؛ ولكن بمد أن تنتهي ساعات القراءة (أي اليقظة) ترانا كثيراً ما نستمر على قلب الصفحات في تراخ وكسل ، فنقرأ صفحة من هنا و صفحة من هناك ، بغير نظام أو ارتباط ؛ وكثيراً ما تكون الصفحة مما قرأناه سابقاً ، وقد تكون في بعض الأحيان جديدة علينا ؛ ولكن الكتاب المقروء واحد لم يتبدل . ولا ريب في أن مثل هذه الصفحة المنفردة مقطوعة الصلة بالدراسة المنظمة للكتاب ، ولكن الفرق لا يبدو كبيراً إذا تذكرنا أن القراءة المتصلة ، كالأمر في قراءة الصفحة المفصلة ، تبدأ وتنتهي فجأة ، وفي وسعنا إذن أن نعتبر المقروء في الحالة الأولى صفحة واحدة كبيرة .

إن عالم الظواهر ، هذا الحلم الذي لانهاية له ، والذي يتسلسل في الزمان والمكان وفقاً لمبدأ السبب الكافي ، هو موضوع التجربة المادية والعلوم المختلفة ، كالفيزياء والكيمياء والتاريخ ؛ فإن غاية العلم ومهمته استقصاء ترابط الظواهر أو الجزئيات أو الأفكار وفق للمبدأ المذكور ، وعلى هدى من « لماذا » . وتسمى هذه العملية بالتعليل . ووظيفة العلم إذن تليل الظواهر ؛ ومضمونه ،